تقرير
اثار شمال لبنان تاريخٌ عريق وواقعٌ أليم

المهندس الدكتور خالد عمر تدمري*

تشمل محافظة لبنان الشمالي أقضية عكار وطرابلس والضنية وزغرتا وبشري والكورة والبترون، وهي بلا غرو تعدّ أغنى مناطق لبنان أثرياً وطبيعياً. وعلّنا لن نتمكن في هذه العجالة من تعداد ما يكتنزه شمال لبنان من ثروات أثرية، ظاهرة أو باطنة، والتي تتنوّع بين مواقع أثرية وأبنية تاريخية تعود لمختلف العصور والحقبات التي مرّت في تاريخ لبنان، ولكننا سنحاول، في جولة سريعة أن نلقي الضوء على بعضها ونتعرف من خلالها على أهمية شمال لبنان التاريخية والأثرية.

ونبدأ من قضاء عكار، وتحديداً من تل عرقة التي تردد اسمها مراراً وتكراراً في التوراة وفي نصوص الألف الثاني ق.م وفي الحوليات الآشورية في غضون القرن الأول ق.م. وقد أبرزت الحفريات الأثرية التي تقودها بعثة فرنسية منذ أوائل السبعينيّات مجموعة من المباني التي تمثل القسط الأوفر من المستويات السكنية التي شهدها التل منذ عصر البرونز القديم حتى عصر المماليك. وفي عكار ترتفع القلعة العتيقة على شير صخري، ويعود تاريخ بنائها إلى أواخر القرن العاشر للميلاد، وقد أسسّها "مِحرز بن عكار". ونجد في أكروم وبيت جِعْلك ومِنْجز بقايا المعابد الرومانية والنصب البابلية وبقايا كنائس ودفائن تعود للحقبة الصليبية. وفي القليعات قلعة شهيرة أقيمت في غضون القرن الثاني عشر، كانت جيوش الفرنجة تأوي إليها أثناء تنقلاتها عبر سهل عكار، ثم أعاد المماليك توسيعها في عهد الملك الظاهر بيبرس. وتنتشر السرايات والأبراج العثمانية في أرجاء القرى العكارية وأشهرها سراي آل مرعب في البيرة ذات الطابع العربي في العمارة، وسراي البرج، وسراي برقايل، وغيرها الكثير من الأبنية المملوكية والعثمانية، كجسر الظاهر بيبرس وجامع قلاوون في عكار العتيقة، والمدرسة الحميدية في مشحة، إضافة الى المقامات والأضرحة الدينية المنتشرة بكثرة في المنطقة.

أما في طرابلس، العاصمة الثانية للمماليك بعد القاهرة، فقد تم تصنيف ما يزيد عن ٢٠٠ معلمٍ تاريخيّ فيها على لائحة الجرد العام، تنوّعت بين مساجد ومدارس وخانات وحمامات وأسواق وسبل مياه وخانقاه وغيرها، هذا فضلاً عن احتضانها لأقدم الأمثلة والبيوت المملوكية ذات الطراز الإسلامي العربي في التصميم والتي يتجاوز عمرها ٧٠٠ عام.

---

* عضو مجلس بلديّة طرابلس ورئيس لجنة الآثار والتراث أستاذ محاضر بمعهد الفنون الجميلة في الجامعة اللبنانية

وتعدّ مدينة طرابلس أكبر المدن اللبنانية القديمة مساحة، وأغنى مدن الساحل الشمالي للبحر المتوسط من حيث عدد معالمها الأثرية، وخصائص تركيبة نسيجها المدني المميز بالتصميم الدفاعي، وهي تمثل بأزقتها وبيوتها وأسواقها ودكاكينها متحفاً حيّاً قائماً منذ اكثر من ٧٠٠ عام. وأشهر معالم طرابلس قلعتها التي تأسست في القرن السابع الميلادي وشهدت تطوراً وتوسعاً مستمرَّين بدءاً من العصر الفاطمي وصولاً إلى العصر العثماني، ومروراً بالعصرين الصليبي والمملوكي، وهي تعد أكبر قلاع لبنان مساحة وأكثرها تكاملاً. ومن معالم طرابلس الشهيرة أيضاً وأجملها الجامع المنصوري الكبير، جامع طينال، المدرسة البرطاسيّة، المدرسة القرطاويّة، خان الصابون، خان الخيّاطين، سوق حراج، وحمّاما النوري والجديد.

وفي الميناء، حيث كانت طرابلس الأساس، مدينة قديمة تتشابه مع مدن حوض البحر المتوسط بعمارتها وخصائصها، وفيها أبنية مملوكية وعثمانية أهمها برج بَرْسْباي وخان التماثيلي المملوكيّان. إلا أنّ أهم ما تكتنزه الميناء هي آثارها التي لا تزال مدفونة في باطنها، والتي يُكشَف عن بعضها بالصدفة بين الحين والآخر. وخير شاهد على ذلك الأعمدة الغرانيتية المنتصبة اليوم في حدائق الميناء والتي تعود للعصر الفينيقي، وهي مجلوبة من مصر الفرعونيّة ومصنوعة من غرانيت أسوان الوردي، وقد جلبها الفينيقيون بحراً من مصر عن طريق المقايضة بأخشاب الأرز، وذلك لاستخدامها في بناء معابدهم.

وفي بلدة البدّاوي، تقع بركة السمك المقدّس الشهيرة والمذكورة في أساطير الفينيقيين، ويُطلّ عليها البرج المملوكي والمسجد العثماني، وبينهما ضريح البدوي الذي أعطى اسمه للبلدة.

وأشهر معالم قضاء الضنية هي قلعة الحصن الرومانية في السْفِيرة، والتي تشكّل أحد أوسع المجمَّعات الدينيّة الرومانيّة في لبنان، حيث يتجاور ما لا يقل عن أربعة معابد وعدد من المذابح التذكارية وبعض الأبنية الدينية الأخرى، بقي منها المعبد الكبير قائماً حتى يومنا هذا.

وفي قضاءيّ زغرتا وبشرّي، تنتشر القرى الجبلية ذات الطابع اللبناني التقليدي، وهي تعدّ الأروع في لبنان، حيث نجد مختلف الطرز التصميمية والعناصر المعمارية للبيت اللبناني التي جمعت الفنون العربية والتركية والأوروبية معاً، وتعود لنهاية القرن التاسع عشر. والأمثلة كثيرة في إهدن وبشري وحدث الجُبَّة وحصرون وحدْشيت وبقاع كفرا وغيرها، وتنتشر داخل هذه القرى وبينها أقدم وأشهر الأديرة والكنائس في لبنان وأروعها هندسة وموقعاً. لذا صُنّف وادي قاديشا، الوادي المقدّس، تراثاً عالمياً من قِبَل منظمة الأونيسكو، لما يحتويه، بالإضافة الى المناظر الطبيعية الخلاّبة، من المعالم الدينية والمسيحية، أشهرها دير قنّوبين الذي أسسّه البطاركة الموارنة في القرن الخامس عشر، ودير مار أنطونيوس قزحيّا الذي شهد نشاط أول مطبعة في الشرق منذ

نهايات القرن السادس عشر، ودير مار أليشع. وفي إيعال قلعة عثمانية بناها بربر آغا، تمتاز بخصائص عمارتها العسكرية الحصينة.

ولا يقلّ غنى قضاء البترون بالمعالم الأثرية والتاريخية عن سابقيه، فنجد الآثار الفينيقية في مدينة البترون حيث السور الحجري على الشاطىء، ونجد أطلال المعابد الرومانية في قرى آسيا وحردين ودوما وسمار جبيل، وفي بشعلة وإدّه وداعل وكبّا والبترون وأنفة كنائس تعود للعصرين البيزنطي والصليبي، وفي رأس نحاش والمسيلحة برج وقلعة من العصر المملوكي، وفي شكّا يقع أول نفق شُقّ لمرور العربات في لبنان زمن العثمانيين.

ويكاد لا يختلف تعداد المواقع الأثرية واختلاف حقباتها في قضاء الكورة، حيث نجد أيضاً المعابد الرومانية لا تزال قائمة في بزيزا وقرب بلدة عين عكرين حيث معبد قصر الناووس، وتوجد جداريّات من العصر البيزنطي في مغارة مارينا قرب القلمون، وفي أطلال كنيسة القديسة بربارة برغون، والكنائس الصليبية في أنفة وأميون وكوسبا والبلمند، والحصون والمساجد العثمانية في ددّه وبتوراتيج والقلمون، كما نجد الأديرة التي تأسست في القرن الثامن عشر، ومنها دير حمّاطورة قرب كوسبا، ودير الوادي في كفتون، ودير سيدة النوريّة في حامات.

وبالتالي لا تكاد مدينة أو بلدة أو قرية صغيرة في شمال لبنان تخلو من معالم حضارية أو بقايا أثرية، أو كانت شاهدة على قصة تاريخية تعود لحقبةٍ أو لعدة حقبات مجتمعة، هذا فضلاً عن تمازج هذه المواقع والمعالم والشواهد التاريخية مع الطبيعة الخلاّبة للمنطقة، بحيث جاءت جزءاً منها، وارتبطت عمارتها بالبيئة المجاورة والمواد المتوافرة في المكان، وهذا ينمّ عن مهارة وذوق وإبداع الإنسان الذي عاش في هذه المنطقة وتنوع ثقافاته، ومستواه الحضاري والفكري، والتقدم العلمي الذي خوّله تسخير موارد الطبيعية المتوفرة في إقامة معالم تشهد على تاريخ طويل وعريق.

إلاّ أن هذه الثروة الهائلة من الآثار والتراث قد تعرضت خلال الخمسين عاماً الماضية فقط لكل أنواع الإهمال والتشويه والتخريب والتعتيم.

فها هي مدينة طرابلس القديمة قد فقدت أروع وأقدم محلاّتها القديمة التي كانت تشكّل قلبها النابض والمعروفة بمحلة السويقة، وذلك إثر تنفيذ مشروع تقويم مجرى نهر "أبو علي" عام ١٩٥٦، حيث تحوّلت من أجمل محلة في المدن اللبنانية، كانت شبيهة بمدينة البندقية ولكن على طراز شرقي وتغنّى بها الرحالة والرسّامون، تحولت إلى أقبح منطقة تعاني من كلّ أشكال الإهمال والتشويه، هدم معها نحو ٢٠ معلماً أثرياً وأكثر من ٢٠٠ بيت مملوكي، ولم تقم مديرية الآثار حينها بحفظ الحجارة المنقوشة منها على الأقل، أو حتى توثيق هذه المباني بالصورة قبل هدمها، واستمرت أعمال الهدم ثلاث سنوات دون أن يحرّك أحد من المسؤولين ساكناً. وكذلك شُقّت الطرقات داخل المدينة القديمة لتسهيل دخول العربات إليها على حساب خرق النسيج العمراني

المتكامل فيها، في حين لم تشهد هذه المدينة مشروعاً متكاملاً للحفاظ عليها وصيانتها منذ تأسيس الجمهورية. هذا عدا ما تعرّضت له آثارها من التدمير والتخريب والنهب خلال الحرب.

ومدينة الميناء، التي تحتضن في باطنها آثاراً لا تقل أهمية عن آثار جبيل المكتشفة، فلم تحظ حتى اليوم بإقامة حفريات أثرية على غِرار ما حدث في باقي مدن الساحل اللبناني جبيل وبيروت وصيدا وصور. وتوجد تحت أرضها المعابد الفينيقية والرومانية والقصور والحمامات البيزنطية والعربية، ومكتبة دار العلم أكبر مكتبة في العصر الوسيط، وآثار الفاطميين والصليبيين، ويُكشف عنها بالصدفة عند حفر أساسات المباني الحديثة، فيقوم بعض الغيورين من المقاولين بإستخراج هذه الآثار وعرضها في حدائق المدينة وساحاتها، بينما يقوم آخرون بإستخدامها في أساسات أبنيتهم! ومؤخراً جاء إقرار المخطط التوجيهي العام لمدينة الميناء ليقضي على أية فسحة أمل لإقامة حفريات في المناطق الفارغة التي تبقّت منها، حيث قسمّها المخطط المذكور إلى مناطق صناعية وسياحية وسكنية دون لحظ أي منطقة أثرية تحفظ لحفريات قد تقام في المستقبل. وفي عكار نسمع كل يوم عن الآثار التي يكتشفها الأهالي والمنقبون من تجار الآثار هنا وهناك، وتباع إلى هواتها في الداخل والخارج دون حسيب أو رقيب، كما أن قلعة عكار العتيقة قد تداعت، وسرقت الحجارة المنقوشة لجسر عكار العتيقة وغيره من المعالم هناك، ولم يصدر حتى اليوم عن وزارتي السياحة والثقافة كتاب أو كتيّب أو حتى مطوية تعرّف بمنطقة عكار أو بالآثار المنتشرة في قراها على غرار ما قامت بنشره عن كل زاوية في سهل البقاع على سبيل المثال. كما سمعنا العام المنصرم عن سرقة الحجارة المنقوشة من قلعة السفيرة في الضنية والتي كانت تحمل صور الآلهة الرومانية، ولا يوجد حارس من كِلا الوزارتَين يحمي هذا المعلم الهام! وفي القرى الجبلية في بشري وزغرتا والكورة والبترون، أدى غياب التنظيم المدني إلى ظهور الأبنية الباطونية المرتفعة بجوار البيوت اللبنانية التقليدية، وأدى غياب قوانين التنظيم إلى عدم مراعاة الطابع التقليدي للبيوت اللبنانية وعناصرها أو حتى الإيحاء منها بشكل حديث، مما أدى إلى تشويه الطابع المميّز لهذه القرى وأفقدها كثيراً من جمالها. كما لا تزال العديد من المواقع والمعالم الأثرية والبيوت التراثيّة في الشمال غير مصنّفة وغير مدرجة على لائحة الجرد العام للأبنية الأثرية، مما يعرضها بشكل دائم للهدم في أية لحظة من قبل مالكيها. وها هي مغاور الضنيّة والقموعة وقاديشا، والتي ذكر العلماء أنها تضاهي مغارة جعيتا ضخامة وجمالاً، لا تزال غير مكتشفة بالكامل ولم يتم استثمارها سياحياً حتى اليوم. كما تشوّه محيط قلعة المسيلحة الطبيعي والبيئي بفعل الكسّارات التي غيّرت من طوبوغرافيا المكان وجماله وطبيعته وأثّرت على أساسات القلعة.

ويبقى أن نشير إلى خلوّ الشمال بأكمله من متحف واحد يعرض آثاره الكثيرة وتاريخه العريق، فيما هذه المقتنيات تباع هنا وهناك، بعد أن سُرقت كل مقتنيات متحف قلعة طرابلس خلال الحرب. وإذا قمنا بزيارة المتحف الوطني في بيروت، والذي يجب أن يوحي إسمه بأنه "وطني"، فلن نجد فيه ما هو معروض من شمال لبنان، بإستثناء بعض النقود والقطع الفخارية الصغيرة اليتيمة، فيما خُصِّصت القاعات الكبرى فيه لمعروضات المدن المحظوظة بالحفريات الأثرية والتي تنال الإهتمام والرعاية العمليّة والسياحيّة والإعلامية الدائمة من الوزارات المعنية .